ماضي، وحاضر، القرية الفلسطينية

الدكتور شكري عرّاف (ابن قرية معليا الفلسطينية) هو احد أهمّ الباحثين في مجال القرية العربية الفلسطينية. فمنذ كتابه الاول «الارض، الانسان والجهد»، الذي أُصدر في العام ١٩٨٢، أثار انتباه الفلسطينيين والباحثين الى موضوعات لم تطرق من قبل: ميزات حياة الانسان في فلسطين؛ حيث تناول موضوعات الزيتون والملح والمياه والتنباك والصيد وجهد الحيوان والوعر والاوزان والمكاييل والعادات الزراعية، وبماذا حرث فلاحونا، وكيف؟ وما الذي بقي منها حتى اليوم؟

بعد كتابه ذاك، صدر له كتاب آخر أثار ضجة كبيرة جداً، وسجّل رصيداً كبيراً لكاتبه في مجال الريادة، وهو «القرية العربية الفلسطينية؛ مبنى واستعمالات اراض»، أصدرته جمعية الدراسات العربية في القدس، في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥. كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الممتاز تحوي، في سطورها، معلومات وجهداً ندر وجودهما في كتب أخرى قد تتعلّق بالموضوع ذاته من قريب، أو بعيد. موضوعات الكتاب تركّزت على مبنى القرية الفلسطينية، دون ان يترك شاردة أو واردة دون بحث او تمحيص؛ ثمّ سجّل اسماء القرى الفلسطينية التي بقيت أو أُبيدت، بدءاً من قضاء غزة ويافا والرملة، الى قضاء صفد. لهذا الجهد العظيم كان هذا اللقاء مع الباحث شكري عرّاف:

○ كتاب «القرية العربية الفلسطينية...»: ما هي مواصفات القرية العربية الفلسطينية؟ بماذا تختلف، وتلتقي، مثلاً، مع القرية اللبنانية؟ أو ما هي سماتها المميزة؟

ـ بنظري، القرية العربية الفلسطينية تضرب عميقاً الى العصر الكنعاني. وميزتها انها واصلت حياتها كقرية على مدى العصور التاريخية التي مرّت بفلسطين، وخصوصاً ان فلسطين جسر قارّات، وبذلك فالقرية هي أيضاً جسر حضارات. من الطبيعي ان تتعرّض القرية الفلسطينية، كمّاً ونوعاً، الى التلاشي، ثمّ التوالد من جديد. ولقد تمكّنت القرى في حوض البحر المتوسط من التغلّب على كل الموجات الضاغطة، السياسية والعسكرية. فكلّما تعرّضت القرية لموجة كهذه كانت «تتدنمك» (من ديناميكية) من جديد، ثمّ تتوالد، لتبقى على قيد الحياة بأقوى ممّا كانت عليه في السابق.

الميزة الاخرى للقرية الفلسطينية انها كانت تستطيع ان تنحصر في اطر جغرافية، كالجبل، وتبتعد من مصادر الخطر البشرية والطبيعية (البشرية كالهجمات، والطبيعية كاهمال الارض وتكوّن المستنقعات، مثل اهمال السلطة المركزية)؛ ومع أول بادرة لامكانية التجدّد والتوسّع، كانت تنطلق لتعود وتمارس نشاطها على كل رقعة أرض تصلح للزراعة. ويمكن ان نضرب على هذا أمثلة عديدة.

ولا تختلف سمات القرية الفلسطينية كثيراً عن سمات القرية الجبلية في حوض المتوسط، والقرية المرجية السهلية، في أية منطقة استعملت مواد البناء الطبيعية وسيلة لاقامة السكن. فهي كشبيهاتها في لبنان والاردن جبلاً، وفي لبنان وسوريا سهلاً ومرجاً، لكنها تختلف عن القرية المصرية، التي أُقيمت على نهر كبير.

واحدى الميزات النادرة للقرية الفلسطينية هي انها انفتحت على العالم، معطية وآخذة؛ معطية الانتاج، وآخذة بكل وسائل التحضّر والتكنولوجيا، مع الهزّات الاقتصادية التي قد تتعرّض لها مثل هذه التطلّعات، خاصة وان جسماً وطنياً لم يقم، أبداً، لينظّم العلاقة بينها كمجموعة انتاج وبين العالم الخارجي، خاصة في مجالي انتاج القطن والقمح والشعير. ومن صفاتها انها اقتربت